



خطبة صلاة الجمعة 26 / 6 / 2020 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالك

(حدثني عن الإيمان)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشد به، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (I) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1، 2].

قال ابن كثير: يهدي إلى الرُّشد أي يهدي إلى السُّداد والنَّجاح.

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10].

قال المفسرون: معنى قوله: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: يَسِّرْ لَنَا طريقاً سديداً للخير وللحق، والرَّشَد والرُّشد هو الاهتداء لطريق الحق.

أخرج أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعَصِهِمَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ وَلَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا».

أيها الإخوة:

هذه الخطبة الثالثة والعشرون في سلسلة (دليل إرشادي)، تتناول كلُّ خطبة منها مشكلة اجتماعية أسرية أو مالية أو أخلاقية وقع فيها عددٌ منَّا وهو مهمتهم لمعرفة طريق الخلاص منها، وتُقدِّم الخطبة مادة إرشادية للمبتلى، تعينه على رؤية الطريق وتمكِّنه من الاهتداء للصواب في التعامل مع ما وقع فيه.

وليست الخطب قوالب جاهزةً تصلح لتطبيقها على جميع الواقعين بالمشكلة، لكنها قواعدٌ مساعدة تفيد في تبصر طريق الحل، إذ الاختلاف بين البشر سنة والقضايا الاجتماعية تحتاج مرونة.

عنوان خطبة اليوم: (حدثني عن الإيمان)

المسألة: أكرمني الله تعالى بالإيمان به رباً إلهاً خالقاً رازقاً، أذكره وأشكره وأتقرب إليه بامثال أوامره، أشعر بقربي منه وبمحبتته، غير أنّ ما يمر بالبلد من الضيق والآلام وما نسمعه في العالم من الأحداث الجسام وما ينمو إلينا من أخبار الأنام، وهذه الشهوات المبدولة والشبهات المنشورة راحت تؤثر على إيماني وتغير شيئاً من التزامي، فحدثني عن الإيمان وقربي من الرحمن، وأرشدني.

الدليل الإرشادي:

أيها الإخوة:

روح الإيمان بلا إله إلا الله أفراد الله تعالى بالتوكل، وتفويض الأمر إليه، سرُّ الإيمان بلا إله إلا الله أفراد الرب بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء وما يتبع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرغبة، فلا يتوكل المؤمن إلا عَلَيْهِ، ولا يرغب إلا إِلَيْهِ، ولا يرهّب إلا مِنْهُ، ولا يستعين إلا بِهِ، ولا يلتجأ إلا إِلَيْهِ، ولا يسجد إلا لَهُ.

من اعتمد على ماله قلّ، ومن اعتمد على علمه ضلّ، ومن اعتمد على جاهه ذلّ، ومن اعتمد على بشرٍ كلّ.

ومن اعتمد على الله فلا قلّ ولا ضلّ ولا ذلّ ولا كلّ ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3].

- بطل عالمي في السباحة حائز على لقب بطل كأس العالم لمسافة 25 كم مات غرقاً في البحر في إحدى السباقات.

يقول المنقذون: بدأنا في عملية البحث عنه وانتشرت فرق الإنقاذ في منطقة السباق فلم نعثر عليه، ونزلت الضفادع البشرية إلى الأعماق وبعد ما يقرب من الساعة تم انتشال الجثمان وسط ذهول الجميع.

فاحذر أن تتكل على قوتك فقد هلك من هو أقوى منك، وكن ممن يتوكلون على الله وحده لتدخل في المتحققين بلا إله إلا الله.

- كريستوفر ريف ممثل أميركي مثل دور السوبرمان، وكان في تمثيله ينقذ العشرات والمئات من البشر من ورمات وعصابات وسجون ونحوها، وفي يوم وأثناء تدريبه على الحصان سقط فدقت رقبته فأصيب بشلل كامل، وظلّ مقعداً على كرسي متحرك إلى جانبه جهاز تهوية محمول؛ لأنه لم يكن بوسعه التنفس من دون مساعدة. ومن عام 1995 زمن الحادث وحتى 2003 ، أي لمدة ثماني سنوات بقي الأطباء والمعالجون والمشافي تحاول في أن تعيد إليه الحركة فتمكنوا في 2003 من أن يستعيد حركة أصابع يده اليسار ورجله!.

كتبت بعض الصحف كريستوفر ريف سوبر مان أنقذ الكثيرين لكنه لم يستطع أن ينقذ نفسه!. فاحذر أن تتكل على قوتك فقد هلك من هو أقوى منك، وكن ممن يتوكلون على الله وحده لتدخل في المتحققين بلا إله إلا الله.

- ملياردير غربي سيطر على تجارة البن والسكر والأسلحة في بلده، كان يقول "لو كنت أمشي في الطريق ووقع مني مليون دولار فسأتركها ولن أضيع وقتي في التقاطها".

يقولون: ذهب مرة إلى مطعم فتعثر أحد الخدم وأسقط عليه كوب ماء فرفض قبول إعتذاره وطلب من مدير المطعم أن يطرده، وعندما علم لاحقاً بأن الخادم لم يطرد، إشتري الفندق والمطعم بما فيه إنتقاماً لطرده الخادم خطأ غير مقصود!.

مرت الأيام وخسر أمواله وتجارته ففقد عقله وصار مشرداً في الشوارع لا يذكر شيئاً عن نفسه وأصبح يسكن علبة كرتون!.

فاحذر أن تتكل على مالك فقد افتقر من هو أغنى منك ولم يغن عنه المال شيئاً، وكن ممن يتوكلون على الله وحده لتدخل في المتحققين بلا إله إلا الله، لأن لا إله إلا الله تعني إفراد الله بالتوكل وتفويض الأمر إليه.

واليوم في أزمة كورونا ظهر للعالم العاقل أنّ مال الدنيا لم يدفع عن البلاد الوباء، وأنّ جيوش الدنيا لم تهزم هذا الفيروس الضعيف، وأنّ علم الدنيا لم يصل إلى قطرة من بحر علوم الله تعالى، وأنّ خير الأمر الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه والتزام أمره ونهيهِ، والتحقق بلا إله إلا الله.

في الرزق يتوكل المتحققون بلا إله إلا الله على الله ويفوضون أمرهم إليه، فلاهم يعتقدون أنهم يرزقون أحداً إلا أن يشاء الله، ولاهم يعتقدون أن أحداً يقطع عنهم أرزاقهم سوى الله ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ

أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) قَوْرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ ﴿الذاريات: 21 - 23﴾.

قال الأصمعي: أقبلت خارجاً من البصرة فطلع أعرابي على قعود فقال: مَنْ الرجل؟ قلت: من بني أسمع. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن. فقال: اتل علي، فتلوت ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ [الذاريات: 1] فلما بلغت قوله ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 22] فقال: حسبك.

فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي فسلم علي واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال: وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ثم قال: فهل غير هذا؟ فقرأت ﴿قَوْرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ﴾ [الذاريات: 23] فصاح فقال: يا سبحان الله! من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف!! لم يصدقوه بقوله حتى ألجئوه إلى اليمين!.

لا إله إلا الله تقتضي أن لا تتوكل إلى على الله ولا تفوض أمرك إلا إليه. قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى «الوكيل» وهو القيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنه يستقل بأمر الموكل إليه.

وقال الإمام الغزالي: (الوكيل هو الموكل إليه الأمور، ولكن الموكل إليه ينقسم إلى من يوكل إليه بعض الأمور، وذلك ناقص، وإلى من يوكل إليه الكل، وليس ذلك إلا الله، سبحانه وتعالى. والوكيل ينقسم إلى وكيل فقير إلى التفويض والتولية، وهذا ناقص، وإلى وكيل غني عن التفويض والتولية وذلك هو الوكيل المطلق وهو الله.

والوكيل أيضاً ينقسم إلى من يفى بما وكل إليه وفاء تاماً من غير قصور، وإلى من لا يفى بالجميع. والوكيل المطلق هو الذي الأمور موكولة إليه، وهو حري بالقيام بها، وفي إتمامها، وذلك هو الله تعالى فقط).

فمن معاني لا إله إلا الله أفراد الله تعالى بالتوكل، وتفويض الأمر إليه.

فإذا طلبت النصرة والفرج فتوكل عليه: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 160].

وإذا أعرض عنك الخلق فاعتمد على التَّوَكَّلِ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . . .﴾ [التوبة: 129].

وإذا وصلت قوافل القضاء فاستقبلها بالتَّوَكَّلِ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51].

وإذا خشيت بأس الشَّيْطَانِ فلا تلتجئ إلَّا إلى التَّوَكَّلِ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 99].

وإن شئت أن تنال محبة الله فانزل أولاً في مقام التَّوَكَّلِ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

فإذا تحققت بالتَّوَكَّلِ وبتفويض الأمر لله فقد تحققت بلا إله إلَّا الله قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: 13].

وبعد أيها الإخوة:

نقول للأخ صاحب المسألة وأشباهه: روح الإيمان وسرّه أفراد الرب تبارك تعالى بالتَّوَكَّلِ، وتفويض الأمر إليه.

فلا تتوكل إلَّا علىَّه، ولا ترغب إلَّا إليه، ولا ترهب إلَّا منه، ولا تستعن إلَّا به، ولا تلجأ إلَّا إليه، ولا تسجد إلَّا له.

جالس أهل الإيمان والزم ذكر الرحمن وأيقن أنَّ أقصى ما يفعله الخلق بك لا يتعدى ما قدره الله عليك، وإذا خفت أن يرميك القدر بسهامه فكن في جانب الرامي. والله أعلم.

ختاماً – أيها الإخوة:

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل».

والحمد لله رب العالمين